إعجاز القرآن الكريم

تعريفه أنواعه واختلاف العلماء فيه

د.محمد بن أحمد

أستاذ محاضر ب

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة البليدة -2-

ملخص البحث:

يعالج هذا البحث قضية واحدة من القضايا التي شغلت مساحة كبيرة من الفكر الإسلامي والإنساني على مر العصور، ولا تزال تشغله حتى عصرنا الحاضر وهي قضية الإعجاز في القرآن الكريم، فيحاول تتبع أبعاده الإبستمولوجية، ووصف تعدد أنواعه، وبيان حقيقة اختلاف العلماء في بيان وجوهه.

الكلمات المفتاحية: الإعجاز، القرآن، النظم، الأنواع، اختلاف العلماء.

Summary:

This research deals with a single treatment of the issues that had occupied a large area of Islamic and human thought throughout the ages, and still occupied until the present era, an issue that miracle in the Koran, tries to keep track of its dimensions epistemological, and described the multiplicity of

types, and the statement of the fact that different scientists in a .statement of its faces

Keywords:

Miracles,the Koran,systems, species, Scientists differences.

حد الإعجاز والمعجزة:

تـدور دلالـة مـادة "عَجَـز" فـي المعـاجم اللغويـة العربيـة علـى معـاني: الفـوت والسـبق والتـأخر فـي إدراك الشـيء ومـن ذلـك مـا جـاء فـي معجـم الصـحاح للجـوهري(ت393هـ) العجـز: الضـعف. تقـول: عجـزت عـن كـذا أعجِـز بالكسـر عَجْـزًا ومُعجِـزة ومَعجَـزةً ومَعجَـزًا بـالفتح أيضـا علـى القيـاس قـال ثعلـب: سـمعت ابـن الاعرابـي يقـول: لا يقـال عجِـز الرجـل بالكسر إلا إذا عظم عجزه(1).

وقـال صـاحب اللسـان" ومعنـى الإِعْجـاز الفَـوْتُ والسَّـبْقُ يقـال أَعْجَزَني فلان أَي فاتني ومنه قول الأَعشى:

فَـذاكَ ولـم يُعْجِـزْ مـن المـوتِ رَبَّـه ... ولكـن أَتـاه المـوتُ لا يَتَأَبَّقُ وأَعْجَزَني فلان إِذا عَجَزْتَ عن طلبه وإِدراكه(2)

وفـي مـادة (عجـز) يقـول ابـن فـارس(ت395هــ):" العـين والجـيم والـزاي أصـلانِ صـحيحان، يـدلُّ أحـدُهما علـى الضَّـعف، والآخـر علـى مـؤخَّر الشـيء، فـالأول عَجِـزَ عـن الشـيء يعجـز عَجْـزاً، فهـو عـاجزٌ، أي ضَـعيف. وقـولهم إنّ

العجـزَ نقـيضُ الحَـزْم فمـن هـذا؛ لأنـه يَضْـعُف رأيُـه. ويقولـون: "المـرء يَعْجِـز لا مَحَالـةَ". ويقـال: أعجزَنـي فـلانٌ، إذا عَجِـزْت عـن طلبـه وإدراكـه. ولـن يُعجـز اللهَ تعـالى شـيء، أي لا يَعجِـز اللهَ تعـالى عنـه متـى شـاء. وفـي القـرآن: {لَـنْ نُعْجِـزَ اللهَ فِـي الأَرْضِ وَلَـنْ نُعْجِـزَهُ هَرَبـاً} (سـورة الجـن /12)، وقـال تعـالى: {وَمَـا أَنْـتُمْ بِمُعْجِـزِينَ فِـي الأَرْضِ} (سـورة العنكبـوت /الآية 31)(3).

والتَّعْجِيـزُ: التَّثْبـيطُ والنّسْـبَةُ إلـى العَجْـزِ. ومُعْجِـزَةُ النبـيّ: مـا أعْجَـزَ بـه الخَصْـمَ عنـدَ التَّحَـدّي والهـاءُ للمُبالَغَـةِ، والمعجـز فـي وضـع اللغـة مـأخوذ مـن العجـز وفـي الحقيقـة لا يطلـق علـى غيـر الله أنـه معجـزة أي خـالق العجـز وتسـمية غيـره معجـزا ك {فلـق البحـر} و{إحيـاء الميـت} فإنمـا هـو بطريـق التجوز والتوسع(4).

وقـد وردت مشـتقات لفـظ "عَجَـز" فـي سـتة وعشـرين موضـعاً فـي كتـاب الله وذلـك كمـا ذكرهـا محمـد فـؤاد عبـد البـاقي فـي معجمـه، ويلاحـظ مـن هـذا الاسـتعراض لعَجَـز ومشـتقاتها كمـا جـاءت فـي القـرآن الكـريم أن لفظـة"المعجـزة والإعجـاز" لـم تـرد مطلقـاً فـي كتـاب الله، ويشـير إلـى هـذا المعنـى الأسـتاذ نعـيم الحمصـي حيـث يقـول: "ولـم يـرد فـي القـرآن لفـظ معجـزة أو إعجـاز، وإنمـا جـاء فيـه ألفـاظ (آيـة وبرهـان

وســـــلطان) وهـــذه الكلمـــات لا تـــرادف كلمـــة معجـــزة، ولا تشـمل معنـى الإعجـاز المفهـوم منهـا، وإنمـا تـدل علـى جـزء مـن معناهـا الـذي يشـمل أكثـر مـن معنـى جزئـي واحـد وهـذا الجـزء يقابـل كلمـة الـدليل أو الحجـة، بمعنـى أن حادثـة مـن الحـوادث هـي دليـل نبـوة أحـد الأنبيـاء أو دليـل الألوهيـة ولا يـدل علـى أكثـر مـن ذلـك، أمـا كلمـة معجـزة فتـدل علـى أمـر خـارق للعـادة يكـون دلـيلا علـى نبـوة أحـد الأنبيـاء دون غيـره، ويَعجـز غيـره مـن الخلـق عـن الإتيـان بمثلـه، ومـن الصـعب جـدا أن نحـدد الزمـان أو المكـان أو الأثـر الـذي اسـتُعملت فيـه كلمـة معجـزة أو إعجـاز أول مـرة بهـذا المعنى الاصطلاحي الفني."(5).

وأمـا اصـطلاحا فالإعجـاز فـي الكـلام هـو" أن يـؤدى المعنى بطريق هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق"(6)

وتُعـرف الْمُعْجِـزَةُ أيضـا بأنهـا: أَمْـرٌ خَـارِقٌ لِلْعَـادَةِ، مَقْـرُونٌ بِالتَّحَـدِّي، سَـالِمٌ عَـنْ اَلْمُعَارَضَـةِ، يظهـر علـى يـد مـدعي النبوة موافقاً لدعواه (7).

وقـال التهـانوي (ت1158هـ):"العجـز فـي اصـطلاح البلغـاء هـو الإتيـان بمعنـى تركيبـي لا يسـتطاع إكمالـه، ولا يحـاط بكل ما يرمي اليه"(8)

وقـــد أرجـــع الرافعـــي –رحمـــه الله– حقيقـــة الإعجـــاز إلـــى أمـــرين يقول: "وإنما الإعجاز شيئان:

ضـــعف القـــدرة الإنســـانية فـــي محاولـــة المعجـــزة، ومزاولتـــه علـــى شـــدة الإنســـان واتصـــال عنايتـــه، ثـــم اســـتمرار هـــذا الضـــعف علـــى تراخـــي الـــزمن وتقدمـــه. فكـــأنَّ العـــالم كلـــه فـــي العجـــز إنســـان واحـــد، لـــيس لـــه غيـــر مدتـــه المحـــدودة بالغـــةً مـــا بلغت"(9)

وجملـــة القـــول فـــي كـــل مـــا تقـــدم مـــن تعريفـــات العلمـــاء لمصـــطلح الإعجـــاز والمعجـــزة فإنـــه يمكننـــا القـــول بـــأن المعجـــزة هـــي إثبـــات عـــدم القـــدرة، أو القصـــور عـــن فعـــل الشـــيء، وهـــو أمـــر خـــارق للعـــادة مقـــرون بالتحـــدي ســـالم عـــن المعارضـــة، غيـــر مـــا اعتـــاد النـــاس مـــن ســـنن الكـــون والظـــواهر الطبيعيـــة، فـــلا يمكـــن لأحـــد أن يعـــارض هـــذا الأمـــر، ولا يســـتطيع أن يأتي بمثله.

2–أنواع الإعجاز:

جـــاءت معجـــزة الإســـلام (القـــرآن الكـــريم) تتحـــدى العقـــل البشـــري علميـــا، ولغويـــا، وفكريـــا، وتشـــريعيا، وكـــل أنـــواع الإعجـــاز البشـــري فـــي أقصـــى درجـــات رقيّـــه المفتـــوح إلـــى يـــوم الـــدين. قـــال تعـــالى: {سَـــنُرِيهِمْ آيَاتِنَـــا فِـــي الْآفَـــاقِ وَفِـــي أَنْفُسِـــهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} (سورة فصلت/ الآية 53).

ومـــا زال النظـــر فـــي القـــرآن الكـــريم وتـــدبر آياتـــه يفـــتح مغـــاليق الفهـــم، وتشـــرق بـــه أنـــوار المعرفـــة، وتظهـــر بـــه أســـرار وخفايـــا هـــذا الكـــون العجيـــب، لتعـــزز اليقـــين القـــائم، وتؤكـــد الإيمـــان الراســـخ بوحدانيـــة الخـــالق عـــز وجـــل وألوهيتـــه وجلالـــه وعظمتـــه، وصـــدق نبـــوة أنبيائـــه ورســـله، وإعجـــاز قرآنـــه وإشـــراق أنـــوار مبيانـــه، وهـــذا التـــدبر يتـــأتى للنـــاظر مـــن وجـــوه مختلفـــة في أعلى أنواع الإعجاز، ولعل أهمها أربعة أنواع:

الإعجاز البياني:

يُجمـــــع القـــــائلون بتعـــــدد وجـــــوه الإعجـــــاز علـــــى أن الإعجـــاز البيـــاني هـــو أعظـــم هـــذه الوجـــوه وأهمهـــا وأعمهـــا، ذلـــك لأنـــه لا تخلـــو منـــه آيـــة مـــن كتـــاب الله تعـــالى، وأمـــا الوجـــوه الأخـــرى فليســـت كـــذلك، فهـــي مفرقـــة فيـــه، فالإعجـــاز بمختلـــف أنواعـــه وفروعـــه ورد بصـــورة واحـــدة مـــن أســـاليب الخطـــاب هـــي صـــورة الخطـــاب الأدبـــي، وقـــد تحـــدى الله بـــه فرســـان اللغـــة، وأســـاطين البيـــان، وأربـــاب البلاغـــة والكـــلام، ولايـــزال التحـــدي قائمـــا إلـــى يـــوم القيامـــة قـــال تعـــالي: {قُـل لَّـئِنِ اجْتَمَعَـتِ الإِنـسُ وَالْجِـنُّ عَلَـى أَن يَـأْتُواْ بِمِثْـلِ هَـذَا الْقُـرْآنِ لاَ يَـأْتُونَ بِمِثْلِـهِ وَلَـو كَـانَ بَعْضُـهُمْ لِـبَعْضٍ ظَهِيـراً}(سـورة الإسـراء /الآيـة88)، فأسـلوب القـرآن معجـز علـى كـل مسـتويات حروفـا وألفاظـا وتركيبـا، فحيثمـا قلـب الإنسـان نظـره وجـد

أسرارا من الإعجاز اللغوي يجد ذلك في نظامه الصوتي البديع بجرس حروفه، حين يسمع حركاتها وسكناتها، ومداتها وغناتها، وفواصلها ومقاطعها، فلا تمل أذنه السماع، وتفتا تطلب منه المزيد.

ويجد ذلك في ألفاظه التي تفي بحق كل المعنى في موضعه، لا ينبو منها لفظ يقال إنه زئد، ولا يعثر الباحث على موضع يقول إنه يحتاج إلى إثبات لفظ ناقص ويجد ذلك في ضروب الخطاب التي يتقارب فيها أصناف الناس في الفهم بما تطيقه عقولهم، فيراها كل واحد منهم مقدرة على مقياس عقله ووفق حاجته من العامة والخاصة قال تعالى: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} (سورة القمر/الآية 17)

ويجد ذلك في إقناع العقل وإمتاع العاطفة، بما يفي بحاجة النفس البشرية، تفكيرا ووجدانا في تكافؤ واتزان، فلا تطغى قوة التفكير على قوة الوجدان، ولا قوة الوجدان على قوة التفكير، وهكذا حيثما قلب النظر قامت أمامه حجة القرآن في تحدي والإعجاز(10).

كالبَدر من حيْث التَفَت رأيْته ... يَهدي إلى عيْنيكَ نُورا ثاقِبا

كَالشَّمسِ فِي كَبِدِ السَّماءِ وَضَوءِها ... يَغشَى البِلاد مشَارقًا ومَغارِبا.

إن مظاهر الإعجاز البياني في القرآن تتجلى في جملة من العناصر والخصائص العامة للأسلوب القرآني، والتصوير بضرب الأمثال، والبلاغة العالية في الإيجاز، والإبداع في التكرار، والتوظيف الدقيق للكلمة، وتكامل المعنى في الجملة القرآنية، والانسجام النغمي للفاصلة القرآنية مع كل ما سبق.

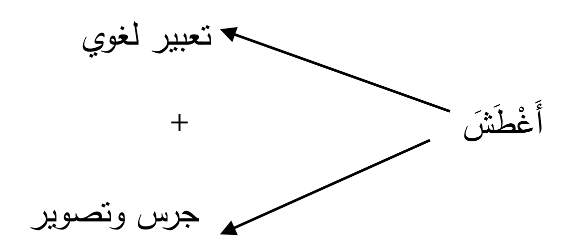
هذا ولعل مَكمَن الإعجاز البلاغي للقرآن والذي لا يمكن للطاقة البشرية أن تبلغه تتلخص في مشكلتين اثنتين لا حل لهما تعترض الإنسان حين يحاول أن يُعبر عن المشاعر التي تعتريه:

الأولى: حين يجد الإنسان أن اللغة التي يركن إليها للتعبير بالكاد تستطيع أن تعبر على أكثر تقدير 50 % من كنوناته، وما تبقى من المشاعر التي لم تستطع اللغة الإحاطة بها فقد احتال عليها الإنسان منذ القدم بالنغم والموسيقى.

الثانية: أن اللغة فيها ما يسمى بالمترادفات نحو: جلس، قعد، مكث...، ولكن في الحقيقة أن كل لفظة من هذه الكلمات المترادفة لها تؤدي دلالة تختص بها وتستقل عن

أخواتهـــا، فتقـــول جلـــس الرجـــل مـــن اضــــطجاع، وقعـــد مـــن وقـــوف، وتقـــول مكـــث إذا اســـتقر بالمكـــان ولـــم يـــرد أن يطيـــل فيـــه، وهـــذا ينســـحب علـــى كـــل اللغـــة، وهـــو الأمـــر الـــذي لا يمكن لبشر أن يحيط به فضلا عن توظيفه في التعبير.

وعليـــه فـــإن الإعجـــاز البلاغـــي فـــي القـــرآن باختصـــار هـــو براءتـــه مـــن هـــذين العجـــزين بـــأي شـــكل مـــن الأشـــكال، والأمثلـــة فـــي مثـــل هـــذا المقـــام لا يمكـــن حصـــرها ومـــن جملتهـــا مـــثلا: التعبيـــر عـــن الظلمـــة ومـــا ينتـــاب المـــرء فيهـــا حـــين تتنازعـــه أحاســـيس الوحشـــة والرهبـــة وهـــواجس الـــنفس فـــلا يملـــك إلا أن يقـــول: (أظلـــم الليـــل، جـــن الليـــل) أمـــا القـــرآن فعبـــر عـــن كـــل ذلـــك فقـــال: {أَأَنْـــتُمْ أَشَـــدُّ خَلْقـــاً أَمِ السَّـــمَاءُ بَنَاهَـــا رَفَـــعَ سَـــمْكَهَا فَسَـــــوَّاهَا وَأَغْطَـــــشَ لَيْلَهَـــــا وَأَخْـــــرَجَ ضُحَاهَا}(ســـــورة النازعات/الآية27-29).



فـــالقرآن الكـــريم يصـــوغ المعـــاني بكلمـــات تـــدل علـــى المعنـــى اللغـــوي، وتـــدل علـــى بقيـــة مـــا لـــم تســـتطع الكلمـــة التعبيـــر عنـــه

بجرس الكلمة، بطبيعة الأحرف التي صيغة منها الكلمة فسبحان من أحاط بكل الكلام خُبرا.

الإعجاز الغيبي:

إن من دلائل إعجاز القرآن الباهرة الإعجاز الغيبي، فقد أخبر عن أمور تقع في المستقبل فجاءت كما أخبر دون تخلف أو تغير، وهذا مما لا طاقة للبشر عليه بحال، والغيب في القرآن غيبان: غيب الماضي، وغيب المستقبل، فأما الأول فيراد به استحضار القرآن لقصص الأنبياء مع أقوامهم، وحوادث الزمن الغابر من لدن آدم عليه السلام وحتى الرسالة المحمدية، والرسول صل الله عليه وسلم كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، ولم يتعلم على أحد من أهل الكتاب ولا غيرهم(11)، فكان الشرع الحكيم يذكر بأن محمدا عليه السلام لم يكن ليسرد هذه الأخبار من عنده، وإنما هي مما أوحى الله إليه وأطلعه على أنبائه، قال عز وجل: { وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ، وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ، وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ، وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا، وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} (سورة القصص/ الآية 44-46)،

ولـــم يقـــف القـــرآن عنـــد الإخبـــار المحـــض وإنمـــا جـــاوز ذلـــك إلـــى بيـــان الزيـــف والتحريـــف الـــذي أوقعـــه أهـــل الكتـــاب بـــالتوراة والإنجيـــل، فخـــاطبهم فـــي ســـورة مـــريم بقولـــه: {ذَلِـكَ عِيسَـى ابْـنُ مَـرْيَمَ قَـوْلَ الحَـقِّ الَّـذي فيـهِ يَمْتَـرُونَ} (ســـورة مـــريم/ الآيـــة/ الآيـــة 34)، وأمـــا عـــن الغيبيـــات المســـتقبلية فالنمـــاذج فـــي هـــذا البـــاب كثيـــرة مبثوثـــة فـــي ثنايـــا آيـــات القـــرآن ومـــن ذلـــك إخبـــاره تعـــالى بهزيمـــة الـــروم-وهـــم أهـــل كتـــاب فـــي فلســـطين- علـــى أيـــدي الفـــرس -وهـــم عبـــدة أوثـــان- ثـــم انتصـــار الـــروم علـــيهم بعـــد ذلـــك فـــي بضـــع ســـنين(12)، قـــال تعـــالى: {الـم غُلِبَـتْ الـرُّومُ فِـي أَدْنَـى الْأَرْضِ وَهُـمْ مِـنْ بَعْـدِ غَلَـبِهِمْ سَـيَغْلِبُونَ فِـي بِضْـعِ سِـنِينَ لِلَّـهِ الْأَمْـرُ مِـن قَبْـلُ وَمِـن بَعْـدُ وَيَوْمَئِـذٍ يَفْـرَحُ الْمُؤْمِنُـونَ بِنَصْـرِ اللَّـهِ يَنصُـرُ مَـن يَشَـاء وَهُـوَ الْعَزِيـزُ الرَّحِيمُ}(سورة الروم/الآية1-5).

وفـــي اشـــتمال القـــرآن الكـــريم علـــى ذلـــك كلـــه، وإخبـــاره عنـــه، وتصـــديق الوقـــائع لمـــا جـــاء فيـــه وعـــدم تخلّفـــه، ولـــو فـــي جزئيـــة بســـيطة، لـــدليل علـــى أنـــه وحـــي ممـــن خلـــق الأرض والســـماوات العلـــى، وأنزلـــه علـــى رســـوله ليكـــون دلالـــة علـــى صـــدقه {وَلَـوْ كَـانَ مِـنْ عِنْـدِ غَيْـرِ اللَّـهِ لَوَجَـدُوا فِيـهِ اخْتِلافـاً كَثِيـراً } (ســـورة النساء/الآية 82).

جـ الإعجاز التشريعي:

الإعجـــاز التشـــريعي عبـــارة واســـعة المجـــال تشـــمل كـــل مـــا شـــرعه الله تعـــالى لعبـــاده، فهـــو بعبـــارة أخـــرى المـــنهج الـــذي أراده الله لعبـــاده أن يســـلكوه ويـــأتمروا بـــه قـــال تعـــالى: {لِكُـــلٍّ جَعَلْنَـــا مِـــنكُمْ شِـــرْعَةً وَمِنْهَاجـــاً}(ســـورة المائدة/الآيـــة48) فـــالقرآن الكـــريم هـــو مصـــدر التشـــريع للمســـلمين ثـــم يـــأتي بعـــده الحـــديث الشـــريف الـــذي خـــرج مـــن مشـــكاة النبـــوة، إن التشـــريعات الإســـلامية التـــي نظمـــت شـــؤون الإنســـان والحيـــاة، وربطـــت الـــدنيا بـــالآخرة، جمعـــت بـــين الـــروح والمـــادة، فأشـــبعت كـــلاًّ منهمـــا فـــي الإنســـان بمـــا يناســـبها، ووفّـــرت الســـعادة والطمأنينـــة فـــي الحيـــاة الـــدنيا، وأزالـــت القلـــق عـــن النفـــوس مـــن المســـتقبل، مـــع مراعـــاة الفطـــرة وتلاؤمهـــا معهـــا، لـــدليل علـــى أن أحـــداً مـــن البشـــر لا يســـتطيع أن يـــدرك هـــذه المجـــالات أو يحـــيط بهـــا، وهـــي برهـــان ســـاطع علـــى أنهـــا منزَّلـــة مـــن خـــالق الإنســـان العـــالم بقدراتـــه واســـتعداداته {أَلاَ يَعْلَـــمُ مَـــنْ خَلَـــقَ وَهُـــوَ اللَّطِيـــفُ الْخَبِيرُ} (سورة الملك/الآية14).

وقـــد تحـــدث الشـــيخ الطـــاهر بـــن عاشـــور فـــي مقدمـــة تفســـيره التحريـــر والتنـــوير عـــن ضـــوابط وجـــوه الإعجـــاز، فلمـــا أتـــى علـــى الإعجـــاز التشـــريعي رآه أهـــم تلـــك الوجـــوه علـــى الإطـــلاق، لأنـــه المعجـــز للبشـــرية قاطبـــة علـــى مـــرّ العصـــور

كمـا يـراه، متكئًـا فـي ذلـك علـى أن بعـض وجـوه الإعجـاز لا يـدركها إلا المشـتغلون بهـا، خاصـة البيـاني منهـا، فإنـه قاصـرٌ علـى أهـل الفصـاحة والبلاغـة المتشـبعين مـن علـوم اللغـة، بخـلاف الإعجـاز التشـريعي، فإنـه يمكـن أن يعيـه جميـع العقـلاء فـي البشـر، ولـو لـم يكونـوا عربًـا؛ إذا وجـدوا ترجمة متقنة لما فيه من الحكم والأحكام(13).

فـالقرآن الكـريم أول مـن وضـع حقـوق الإنسـان وذلـك منـذ أربعـة عشـر قرنـا، وضـمن للإنسـان فـي تشـريع محكـم مـن وضـع العلـيم الخبيـر جـل وعـلا سـبحانه، وضـع للإنسـان تشريعا محكما يضمن له السعادة فى الدنيا والآخرة.

د-الإعجاز العلمي:

تتجلـى معجـزة القـرآن لأهـل العلـم فـي كـل مجـال مـن مجالاتـه فهـي ظـاهرة فـي نظمـه ولغتـه، وأحكامـه التشـريعية، وفـى إخبـاره عـن الأولـين، وفـى إنبائـه بحـوادث المسـتقبل، وغيرهـا. وفـي هـذا السـياق يقـول ابـن حجـر -رحمـه الله-" ومعجـزه القـرآن مسـتمرة إلـى يـوم القيامـة وخرقـه للعـادة فـي أسـلوبه وبلاغتـه وأخبـاره بالمغيبـات فـلا يمـر عصـر مـن الأعصـر إلا ويظهـر فيـه شـيء ممـا أخبـر بـه أنـه سـيكون يـدل علـى صـحة دعـواه، فعـم نفعـه مـن حضـر ومـن غـاب ومن وجد ومن سيوجد"(14).

ومعلـــوم أن أهـــل هـــذا الزمـــان لا تعنـــيهم أوجـــه الإعجـــاز البلاغيـــة مـــن الفصـــاحة والبلاغـــة، فهـــي لا تثيـــرهم ولا تبهـــرهم، ومـــن الصـــعب علـــيهم تـــذوق جمالـــه اللغـــوي. ولمـــا ارتفعـــت أســـهم العلـــم التجريبـــي والمكتشـــفات العلميـــة وأصـــبحت مصـــدر زهـــو العلمـــاء وافتخـــارهم واعتـــزازهم، أظهـــر الله وجهـــا مـــن أوجـــه إعجـــاز كتابـــه الكـــريم علـــى أيـــدي العلمـــاء –مـــن المســـلمين ومـــن غيـــر المســـلمين–يتناســـب مـــع مـــا يَعنـــيهم ويُبهـــرهم، ألا وهـــو الإعجـــاز العلمـــي فـــي القـــرآن الكـــريم. (وذلـــك الإعجـــاز هـــو الســـبق العلمـــي للقـــران الكـــريم الـــذي ذكـــر حقـــائق فـــي الكـــون لـــم تكـــن البشـــرية تعلـــم عنهـــا شـــيئا)(15)، وهـــذه الحقـــائق تطـــورت بتطـــور الاكتشـــافات التـــي جـــاءت نتيجـــة للإشـــارات الـــواردة فـــي القـــران، وبـــديهي أن يتبـــاين موقـــف العلمـــاء مـــن تلـــك الإشـــارات بتبـــاين الأفـــراد وخلفيـــاتهم الثقافيـــة وأزمـــانهم، وباتســـاع دائـــرة المعـــارف الإنســـانية فـــي مجـــال الدراســـات الكونيـــة، ولـــذلك نجـــد بعـــد فتـــرة مـــن الـــزمن وبعـــد تقـــدم أجهـــزة الكشـــف العلمـــي، وقـــوف العلمـــاء علـــى طـــرف مـــن هـــذه الحقـــائق المفســـرة للإشـــارات الكونيـــة فـــي القـــران وهـــذه الإشـــارات ذكرهـــا القـــران الكـــريم، فـــذلك شـــاهد بـــأن القـــران الكـــريم أنزلـــه الـــذي يعلـــم الســـر فـــي الســـماوات والأرض كمـــا يشـــهد بـــأن محمـــد صـــلى الله عليـــه وســـلم رســـول مـــن عنـــد الله الذي أحاط علما بكل شيء (16).

ووصـــف الإعجـــاز هنـــا بأنـــه علمـــي نســـبة إلـــى العلـــم. والمقصـــود بـــالعلم فـــي هـــذا المقـــام: العلـــم التجريبـــي، وبهـــذا التوصـــيف فـــإن الإعجـــاز العلمـــي هـــو "إخبـــار القـــرآن الكـــريم بحقيقـــة أثبتهـــا العلـــم التجريبـــي أخيـــراً وثبـــت عـــدم إمكانيـــة إدراكهـــا بالوســـائل البشـــرية فـــي زمـــن الرســـول صـــلى الله عليـــه وســـلم"،(17) أو هـــو إبـــراز الحقـــائق القرآنيـــة التـــي أشـــارت إلـــى الحقـــائق الكونيـــة المتعلقـــة بالآفـــاق والأنفـــس، والتـــي جـــاء العلـــم الحـــديث موافقـــاً لهـــا، وهـــو فـــي حقيقتـــه ســـبق الكتـــاب العزيـــز بالإشـــارة إلـــى عـــدد مـــن حقـــائق الكـــون وظـــواهره التـــي لـــم تـــتمكن العلـــوم المكتســـبة مـــن الوصـــول إلـــى فهـــم شـــيء منهـــا إلا بعـــد قـــرون متطاولـــة مـــن تنـــزل القـــرآن الكـــريم، تزيـــد طولهـــا على عشرة قرون كاملة في أقل تقدير لها.

وممـــا وجـــب التنبـــه لـــه فـــي هـــذا المقـــام إدراك الفـــرق الجـــوهري بـــين الإعجـــاز العلمـــي، والتفســـير العلمـــي هـــذا الأخيـــر الـــذي يعرفـــه العلمـــاء بأنـــه: "التفســـير الـــذى يُحَكِّـــم الاصـــطلاحات العلميـــة فـــي عبـــارات القـــرآن، ويجتهـــد فـــي اســـتخراج مختلـــف العلـــوم والآراء الفلســـفية منهـــا"(18)، ففـــي التفســـير العلمـــي للآيـــات الكونيـــة، توظـــف كـــل المعـــارف المتاحـــة مـــن الثوابـــت العلميـــة، والنظريـــات والعـــروض والمشـــاهدات، لأن التفســـير يبقـــى جهـــدًا بشـــريًا، لمـــن أصـــاب فيـــه أجـــران، ولمـــن أخطـــأ أجـــر واحـــد، امـــا الإعجـــاز العلمـــي للقـــرآن الكـــريم فـــلا يجـــوز أن

يوظف فيه إلا القطعي من الثوابت العلمية، وذلك لأن المقصود به هو إثبات أن القرآن الكريم الذي أوحي به إلى نبي أمي صلى الله عليه وسلم، في أمة أمية منذ قرون عديدة يحوي من حقائق هذا الكون ما لم يتمكن الإنسان من الوصول إليه إلا منذ عقود قليلة، وبعد مجاهدات طويلة عبر عدد من القرون المتواصلة وهذا ما لا يمكن لعاقل أن يتصور إمكان حدوثه إلا بوحي من الله سبحانه.

ولقد شاع مصطلح الإعجاز العلمي في عصرنا للدلالة على أوجه إعجاز القرآن والسنة التي كشفت عنها العلوم الكونية، وللإعجاز العلمي في القران والسنة أوجه من أهمها:(19)

1. التوافق الدقيق بين ما في الكتاب والسنة، وما اكتشفه علماء الكون من حقائق وأسرار كونية لم يكن في إمكان بشر أن يعرفها وقت نزول القرآن.

2. تصحيح الكتاب والسنة لما شاع بين البشرية في أجيالها المختلفة من أفكار باطلة حول أسرار الخلق.

3. إذا جمعت نصوص الكتاب والسنة الصحيحة المتعلقة بالكون وجدت بعضها يكمل الآخر، فتتجلى بها الحقيقة، مع أنَّ هذه النصوص نزلت مفرقة في الزمن، وفي

مواضــــعها مـــن الكتـــاب الكـــريم، وهـــذا لا يكـــون إلا مـــن عنـــد الله الذي يعلم السر في السماوات والأرض.

4.ســـن التشـــريعات الحكيمـــة التـــي قـــد تخفـــى حكمتهـــا علـــى النـــاس وقـــت نـــزول القـــران، وتكشـــفها أبحـــاث العلمـــاء فـــي شـــتى المجالات.

5. عـــدم الصـــدام بـــين نصـــوص الـــوحي القاطعـــة التـــي تصـــف الكـــون واســـراره – علـــى كثرتهـــا – والحقـــائق العلميـــة المكتشـــفة – علـــى وفرتهـــا – مـــع وجـــود الصـــدام الكثيـــر بـــين مـــا يقولـــه علمـــاء الكـــون مـــن نظريـــات تتبـــدل مـــع تقـــدم الاكتشـــافات، ووجـــود الصـــدام بـــين العلـــم، ومـــا قررتـــه ســـائر الأديـــان المحرفـــة والمبدلة.

3–إختلاف العلماء في حقيقة الإعجاز القرآني

لقيـــت قضـــية إعجـــاز القـــرآن اهتمامـــا كبيـــرا مـــن لـــدن علمائنـــا، وافترقـــوا علـــى ضـــوئها فـــي تصـــور مكمـــن الإعجـــاز وكنهـــه، فمـــا كـــاد القـــرن الثـــاني الهجـــري يشـــرف علـــى نهايتـــه، ويبتـــدئ القـــرن الثالـــث الهجـــري حتـــى كثـــرت الفـــرق الإنســـانية وتنوعـــت، واشـــتد الخـــلاف بينهـــا، واتصـــل خلافهـــم وجـــدلهم حـــول القـــرآن الكـــريم، وابتلـــي الإســـلام بالعناصـــر الأجنبيـــة، وفـــي أوائـــل القـــرن الثالـــث الهجـــري قُـــدِّر لفرقـــة المعتزلـــة أن تســـيطر علـــى أذهـــان النـــاس، وأصـــبح الاعتـــزال مـــذهبا فـــي

عهد الدولة العباسية(20) ردحا من الزمن، وقد أثارت هذه الفرقة –بتوجهها العقلي– جملة من المسائل الخطيرة في الدرس القرآني على وجه الخصوص على غرار قضية خلق القرآن، ونظرية الصرفة في إعجاز القرآن الكريم هذه الأخيرة التي ابتدعها أحد أقطابهم وهو أبو اسحاق ابراهيم بن يسار النظام(ت221هـ)، ومعنى الصرفة أن الله صرف العرب على أن يأتوا بمثل القرآن، فنظر النظام إلى القرآن من حيث هو دليل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنه يدل على صدق النبوة من حيث أخبار الغيب التي تضمنها، لا من حيث نظمه وأسلوبه، ودقة ألفاظه وجودة معانيه(21)، ثم جاء تلميذه الجاحظ (ت255هـ) فجعل حقيقة الإعجاز في الإيجاز في كتابه "نظم القرآن" الذي لم يصل إلينا، إلا أنه أشار إليه في كتاب الحيوان حين قال:" ولي كتابٌ جَمَعْتُ فيه آياً من القرآن؛ لتَعرِفَ بها فصل ما بينَ الإيجاز والحَذْف، وبين الزّوائد والفُضول والاستعارات، فإذا قرأْتها رأيت فضلها في الإيجاز والجَمْعِ للمعاني الكثيرةِ بالألفاظ القليلة"(22)، وبذلك اعتبر الإعجاز أمرا إيجابيا راجع إلى ناحية من رقعة فن التعبير.

ثم جاء أبو بكر الواسطي (ت:306هـ)، فصنع كتابا سماه "إعجاز القرآن"، وربطه بالنظم مستفيدا من كتاب

الجاحظ(23)، وفي القرن الرابع الهجري ألف أبو الحسن علي الرماني (ت386هـ) رسالته الموسومة بـ" النكت في إعجاز القرآن"، وقال فيها بالبديع ولم يصدر فيه عن رأي مبتكر، ولا استشفاف أدق لأسلوب القرآن، وقد ظلت قضية الإعجاز محتكرة عند أئمة المعتزلة، وأصبحت بذلك مسائل البلاغة من آلات الكشف عن نظرية إعجاز القرآن، فافتتن في استعمالها المتكلمون الأولون: وهم المعتزلة، حتى استقر الكلام السني على قواعد العقيدة الأشعرية في النصف الثاني من القرن الرابع، عدل سريعاً إلى تقرير نظرية الإعجاز على نحو ما كان يقررها عليه المعتزلة، مستعملاً الآلات التي سبق أن استعملها المعتزلة في ذلك، فكان الذي ربط بين فن البلاغة وبين نظرية الإعجاز." إعجاز القرآن " ولكنه لم يتمكن من ضبط جوهر البلاغة ضبطاً يخرجها عن المجال النقدي الذوقي، إلى المجال العلمي المنهجي(24).

وفي القرن الخامس الهجري حاول أبو بكر الباقلاني(ت403هـ)، أن يحلل ما قرره العلماء في البلاغة الإعجازية للقرآن، يقول: "فأما من كان قد تناهى في معرفة اللسان العربي ووقف على طرقها ومذاهبها – فهو يعرف القدر الذي ينتهي إليه وسع المتكلم من الفصاحة ويعرف ما يخرج عن الوسع ويتجاوز حدود القدرة – فليس

يخفى عليه إعجاز القران" (25)، فجنح بذلك إلى تحديد الأقسام، ووسع دائرة النظر، ودار ولف بين فنون الكلام وأساليبه، وقارن الآيات بالفقر والأبيات، ولكنه لم يستطع أن يفصح عن معنى البلاغة وحقائق أبوابها، بما يوضح المنهج لإدراك إعجاز القرآن من جهتها(26) وشهد النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ظهور العلامة عبد القاهر الجرجاني الذي يعد رأسا في علم البلاغة، فتزعم نظرية النظم، وأخرج لذلك كتابه العجيب "دلائل الإعجاز" ففصل فيه القول في القضية وعرضها عرضا مستفيضا، وانتقل بها من حيز الألفاظ إلى حيز المعاني(27)، يقول:" وليسَ النظمُ سِوى تَعليقِ الكَلِمِ بعضِها ببعضٍ وجعلِ بعضِها بسببٍ مِن بعضٍ"(28)، وقوله:" ليس النظمُ شيئاً غيرَ توخّي معاني النحو وأحكامِه فيما بينَ الكلمِ"(29)، فجاء عمله عملاً أساسياً منهجياً كشف به عن معنى الإعجاز البلاغي بصورة مبدئية نظرية تسمو على تتبع الجزئيات، وترديد المقارنات والموازنات، فانفتح بهذا الوضع الجليل باب كان مغلقاً في أوجه متعاطي التفسير، وهو بيان الوجه البلاغي المعجز من كل تركيب قرآني(30)، فظل عبد القاهر بما فتح الله عليه في نظريته التي جمع فيها بين علمي النحو البلاغة نبراسا وإمام في قضية إعجاز القرآن الكريم.

هوامش البحث:

1- الجـــوهري(بن حمـــاد) تـــاج اللغـــة وصـــحاح العربيـــة(مادة عجـــز)،ج5، تحقيـــق أحمـــد عبـــد الغفـــور عطـــار، دار العلـــم للملايـــن- بيروت، ط4،1407 هـ- 1987 م،ص24.

2- ابـــن منظور(محمـــد بـــن مكـــرم)، لســـان العـــرب،ج5، دار صـــادر– بيروت، ط1، (د.ت)، ص369.

3- ابـــن فارس(أحمـــد)،معجم مقـــاييس اللغـــة،ج4، المحقـــق: عبـــد الســـلام محمد هارون، دار الفكر-بيروت، 1399هـ - 1979م،ص232

4- الكفـــومى (أبـــو البقـــاء) كتـــاب الكليـــات، تحقيـــق: عـــدنان درويـــش - محمـــــد المصـــــري، مؤسســـــة الرســـــالة - بيـــروت - 1419هــــ - 1998م،ص214

5- **الحمصـــــي(نعيم)، فكـــرة إعجـــاز القـــرآن، مؤسســـــة الرســـــالة- بيروت،ط2،1400ه-1980م، ص7**

6- الجرجـــاني(علي)، التعريفـــات، دار الكتـــاب العربـــي–بيـــروت، ط1، 1405هـ، ص47

7- الســـيوطي(عبد الرحمـــان)، الإتقـــان فـــي علـــوم القـــرآن،ج2، تحقيـــق : ســـــعيد المنـــــدوب، دار الفكـــــر - لبنـــــان –ط1، 1416هــــ- 1996م، ص370

8- التهـــاوني (محمـــد علـــي)، كشـــاف اصـــطلاحات الفنـــون، تحقيـــق: رفيق العجم- علي دحروج، مكتبة لبنان، ط1، 1996، ص 1165

9- الرافعي(مصـــطفى صـــادق)، إعجـــاز القـــرآن والبلاغـــة النبويـــة، دار الكتاب العربي-بيروت،ط9، 1393هـ،1973م، ص139.

10- القطان(منـــاع)، مباحـــث فـــي علـــوم القـــرآن، مكتبـــة وهبـــة القـــاهرة، ط7، (د.ت)، ص 259-260.

11- الإبـــراهيم(موســـى)، بحـــوث منهجيـــة فـــي علـــوم القـــرآن الكـــريم، دار عمار-عمان، ط2،1416ه-1996م، ص141.

12- النعمـــة(إبـــراهيم)،علـــوم القـــرآن، دون دار نشـــر، ط2،(1429ه-2008م، ص69

13- **ينظـــر: الطـــاهر (بـــن عاشـــور)، تفســـير التحريـــر والتنـــوير،ج1،** دار سحنون-تونس، ط1997،1، ص105.

14- العســــــقلاني(ابن حجــــــر)،فتح البــــــاري شــــــرح صــــــحيح البخاري،ج25،،دار المعرفة- بيروت، ط2،(د.ت)، ص9.

15- الزنداني(عبــــد المجيــــد)، توحيــــد الخــــالق، المكتبــــة العصــــرية- بيروت،ط1، 2011م، ص83.

16- المرجع نفسه،ص83.

17- الزنداني(عبــد المجيــد)، تأصــيل الإعجــاز العلمــي فــي القــرآن والسنة، المكتبة العصرية-بيروت، ط1،(د.ت)، ص14.

18- الذهبي(محمــد حســين)، التفســير والمفســرون،ج2، مكتبــة وهبــة- القاهرة، ط7، 2000م، ص349.

19- ينظــر للتوســع فــي الموضــوع: الزنــداني (عبــد المجيــد)، تأصــيل الإعجاز، ص27-28.

20- عرفــة (عبــد العزيــز)، قضــية الاعجــاز القرآنــي وأثرهــا فــي تــدوين البلاغــــة العربيــــة، دار الكتــــاب-بيــــروت، ط1405،1هــــ، 1985م، ص139.

21- فضــــل (عبــــاس)، إعجــــاز القــــرآن، ، دون دار نشــــر، ط1،(د.ت)، ص38.

22- الجاحظ(عثمــــان)، كتــــاب الحيــــوان،ج3، تحقيــــق: عبــــد الســــلام هارون، مكتبة البابي الحلبي-مصر،ط1385،2هـ،1965م، ص86.

23- الصالح(صــبحي)، مباحــث فــي علــوم القــرآن، دار العلــم للملايــين- بيروت، ط1977،10م، ص314.

24- ابــــن عاشــــور (محمــــد)، التفســــير ورجالــــه، مجمــــع البحــــوث الإســــــلامية-مصر،الســــــنة الثامنــــــة والعشــــــرون،الكتاب الثاني،1417ه،1997م، ص61.

25- البــــاقلاني(أبو بكــــر)، إعجــــاز القــــرآن، تحقيــــق: الســــيد أحمــــد صقر،دار المعارف – القاهرة،ط1،(د.ت)،ص113.

26- ابــــن عاشــــور (محمــــد)، التفســــير ورجالــــه، مجمــــع البحــــوث الإسلامية، ص61-62

27- الحمصي(نعيم)، فكرة إعجاز القرآن، ص86.

28- الجرجاني(عبـــد القـــاهر)، دلائـــل الإعجـــاز، دار الكتـــاب العربـــي– بيروت، تحقيق: محمد التنجي، ط1995،1م، ص13.

29- المرجع نفسه، ص293.

30-ابـــن عاشـــور (محمـــد)، التفســـير ورجالـــه، مجمـــع البحـــوث الإسلامية، ص62-63